

من أعلام التراث :

ابن الأثير الجزري

(٥٥٥ - ٦٣٠ هـ) (١١٦٠ - ١٢٣٤ م)

عبد اللطيف أرنؤوط

يحتل المؤرخ العربي الاسلامي عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير مكانة متميزة بين المؤرخين في تراثنا العربي الاسلامي مثلما يحظى كتابه : « الكامل في التاريخ » بثقة مطلقة اذ يعدّه عمدة المؤرخين القدامى والمحدثين مرجعاً هاماً لا يستغنى عنه ، قال فيه السخاوي في كتابه « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ : » « قال شيخنا : انه أحسن التواريخ بالنسبة الى ايراد الوقائع موضحة بينة حتى كان السامع في الغالب حاضراً من حسن التصرف وجودة الايراد » .

ونوه مترجم حياة ابن الأثير في دائرة المعارف الاسلامية بكتاب الكامل فقال : « وهو - أي ابن الأثير - صاحب الكتاب المشهور : « الكامل في التاريخ » الذي يستشهد به كثيراً في هذه الدائرة » (١) .

وابن الأثير مؤلف الكامل هو الابن الأوسط لأثير الدين الجزري وأحد ثلاثة أخوة نسبوا الى والدهم « أثير الدين » المتحدر من أسرة عربية الأصل تنتمي الى بني شيبان أحد بطون بكر بن وائل العربية ، وهي أسرة غنية كانت تمتلك عقارات واقطاعات ، وشغل أفرادها مناصب حكومية عالية ، وقد شغل والد ابن الأثير منصب رئيس ديوان « جزيرة ابن عمر » التابعة للموصل ونائب وزير الموصل فيها ، وجاراه في الالتحاق بالوظائف الحكومية ولداه : مجد الدين : وهو

(١) دائرة المعارف الاسلامية : الترجمة العربية - ص ٢٠٧ .

الأكبر ، وضياء الدين : وهو الأصغر أما مؤلف الكامل الولد الأوسط عز الدين فقد شغله عن الوظيفة انصرافه الى العلم تدريساً وتأليفاً .

وقد نبغ الأخوة الثلاثة في مجال العلم وكانت لهم مصنفات في مختلف أبوابه ، حظي بعضها بالشهرة الى يومنا هذا ، أما مجد الدين وهو الأكبر فلم تصرفه خدمته للأيوبيين عن التصنيف في الحديث والتفسير واللغة ، درس النحو على ابن الدهان في الموصل والحديث في بغداد ، وتولى خدمة الأمير « قيمان » الذي حكم البلاد قبل سيف الدين غازي ثم تولى ديوان الرسائل لمسعود بن مودود ونور الدين أرسلان شاه ، ثم عرض له مرض كف يديه ورجليه ، ويقول ابن خلكان : « انه صنف معظم كتبه ان لم يكن كلها وهو على هذه الحال » وله مصنفات منها : « كتاب الانصاف في تفسير القرآن » و « كتاب غريب الحديث » و « كتاب جامع الأصول في حديث الرسول » وغيرها . .

وأما الأخ الأصغر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله (٥٥٨ - ٦٣٧ هـ) فقد ولد في جزيرة ابن عمر وتوفي ببغداد ، وترجع شهرته الى أنه كان من أصحاب الأساليب ، ويعد كتابه المشهور في البلاغة : « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » الذي طبع ببغداد ١٢٨٢ هـ من أهم المراجع في بابيه ، ومن مصنفاته أيضاً : « الوشي المرقوم في حل المظلوم » و « المعاني المخترعة في صناعة الانشاء » .

ويعد الأخ الأوسط - موضوع بحثنا - أكثرهم شهرة ، ولد في الرابع من جمادى سنة ٥٥٥ هـ في جزيرة ابن عمر التابعة للموصل ، وانتقل الى الموصل مع أسرته حيث عمل فيها والده ، وهياً له أبوه ولأخويه سبل التعليم ، فألحقه في طفولته بأحد الكتاتيب في جزيرة ابن عمر فتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ، وفي الموصل اتصل بأسرها العلمية وتردد على مجالس العلم فيها فسمع من خطيبها أبي الفضل عبد الله بن أحمد الطورسي ، وأبي الفرج يحيى الثقفي ، ومسلم بن علي السيجي ، وتردد على الشام أكثر من مرة زمن الأيوبيين فعقد صداقات مع علماء الشام ونال شهرة في الوسط العلمي فيها محدثاً ومؤرخاً ، تتلمذ على عدة أشياخ فسمع الحديث من أبي القاسم بن حصري ، وزين الأمانة ، وابن سويدة التكريتي وابن رواحة وابن كليب الحراني ، وكان يتردد على بغداد منتهزاً

فرصة الحج ، فسمع فيها من عبد المؤمن بن كليب ويعيش بن صدقة ، وعبد الوهاب بن سكينه ، وأبي أحمد عبد الوهاب ابن علي الصوفي ، ودرس على أشياخه الحساب واللغة والفقه وغيرها من العلوم .

برز ابن الأثير بنوعين من العلوم هما الحديث والتاريخ وتخصص فيهما ، لكنه اشتهر مؤرخاً أكثر من شهرته محدثاً، يقول ابن خلكان عنه كان «حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة ، وخبيراً بأنساب العرب وأيامهم وأخبارهم، عارفاً بالرجال وأنسابهم ولا سيما الصحابة » .

ولا تمدنا المصادر بالكثير عن حياته الخاصة ، وكل ما يعرف عنه أنه عاش منقطعاً الى العلم تحصيلاً وتدريساً وتصنيفاً وربما اعتمد عليه صاحب الموصل في بعض الشؤون السياسية لدى أولي الأمر ببغداد ، وقد حج أكثر من مرة ، وسمح له غناه أن يعيش حياة أرستقراطية مما ساعده على التفرغ الكامل للعلم ، فهو يذكر أن والده كان يملك عدة بساتين بقرية العقيمة احدى قرى جزيرة ابن عمر ، وقرية أخرى جنوب الموصل يقال لها « قصر حرب » وانه جمع أكثر مادة كتابه « الكامل في التاريخ » في دار لهم بهذه القرية .

ويجمع من ترجم لابن الأثير على تحليله بالأخلاق الفاضلة ، اجتمع به ابن خلكان في حلب فوجده على حد تعبيره : « رجلاً مكملًا في الفضائل وكرم الأخلاق وكثرة التواضع » . وكان بيته مأوى لطلاب العلم لا يتوانى عن مساعدتهم والعطف عليهم . وتذكر المصادر أسماء بعض طلابه ومنهم ابن عساكر والزينبي والمجد بن أبي جرادة . وقد أهله علمه وأخلاقه الرفيعة الى عقد صلات مع مشاهير عصره ومنهم طفرين مدبر أمور حلب ، وصلاح الدين الأيوبي وقد صحبه في معسكره في بعض غزواته . توفي ابن الأثير في شهر شعبان أو رمضان سنة ٦٣٠ هـ عن عمر يناهز الثالثة والسبعين .

اشتهر عز الدين بن الأثير مؤرخاً ، ويرجع ميله للتاريخ الى تحصيله الواسع في علم الحديث ، وقد دفعه الاهتمام بالحديث الى تتبع سيرة النبي وأخبار الصحابة وجره ذلك الى قراءة كتب التاريخ حتى ألمّ بتاريخ المشرق الاسلامي وتاريخ المغرب الاسلامي ، يدفعه الى ذلك ميل قوي الى مطالعة الكتب التاريخية ، يقول في مقدمة كتابه الكامل في التاريخ :

« أما بعد فاني لم أزل محباً لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها مؤثراً الاطلاع على الجليّ من حوادثها وخافيتها ، مائلاً الى المعارف والآداب والتجارب المودعة في مطاويها . » ويتضح من أسلوبه في الكتابة كثرة مطالعته الأدبية التي طبعت بعض كتاباته بطابع أدبي أما كتاباته التاريخية ومصنفاته في الحديث فلا تتجلى فيها نزعة الى استخدام السجع والبيان الا في مقدماتها ، فهو يؤثر الأسلوب المرسل الواضح .

ينظر ابن الأثير الى علم التاريخ من زاوية فوائده الجليلة التي يشير اليها في مقدمة الكامل فيرى أن التاريخ باب من أبواب الثقافة يتيح للانسان أن يعيش مع الماضي فمن يقرأ عن الماضي فكأنه عاش فيه ، وهو عظة للناس والحكام ، وسبيل الى الترويح عن النفس ، وقراءة التاريخ فوق هذا تزهد الانسان بالدنيا وترغبه بالآخرة والعبادة وتمثل عظمة الخالق ، وفيه أيضاً من التأسّي ما يهون به كل مصاب وتزول أمام ما يعرض من محن كل كربة .

يقع كتابه الكامل في اثني عشر جزءاً ، وقد اعتمد أكثر ما اعتمد في أجزائه السبعة الأولى منه على الطبري ، فاختصر تاريخه حاذفاً الأسانيد متجاوزاً الاسهاب ، مكتفياً بالرواية الواحدة ، على أن ذلك لم يمنعه أن يستمدّ من مصادر أخرى كابن الكلبي والمبرد والبلاذري والمسعودي دي مكمل ما ترك الطبري عن قصد أو غير قصد كأيام العرب قبل الاسلام والوقائع بين قيس وتغلب في القرن الأول الهجري وغزو العرب السند .

أما بقية أجزاء الكتاب فقد انتفع في تأليفها بكل المصادر العربية التي وصلت الى يده ولذلك عدّ كتابه بحق خلاصة وافية لما كتب المسلمون في تاريخهم السياسي حتى سنة ٦٢٨ هـ أي قبيل وفاة المؤرخ بسنتين . وقد امتاز ابن الأثير بانفراده من بين معاصريه في تأريخ الحروب الصليبية وغزو التتر ، وقد استعان في تدوين الفترة التي لم يعاصر فيها الحروب الصليبية بالعماد الأصفهاني والمؤرخين الذين عاصروها من سبقوه كابن القلانسي والأتاري وابن أبي جرادة وابن شداد ، وقد تضمن تاريخه تقسيماً للحملات الصليبية الخمس على الشرق العربي الاسلامي والحملة الرابعة التي استهدفت في الأساس الشرق العربي الاسلامي لكنها تحولت الى القسطنطينية .

أما الغزو التتري فقد عاصره ابن الأثير منذ بدايته سنة ٦١٦ هـ حتى وفاته قبل سقوط بغداد . وأظهر أساء لما شهد وسمع من فتك المغول وقسوتهم يقول في ذلك «ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه . . . يسر» الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم ، فلقد دُفعوا من العدو الى عظيم» . واقتصر في تدوين أخبار هذا الغزو على المعاصرين من شهود العيان أو الرسائل التي تصل الى الموصل من البلاد المهاجمة وبعض التجار . وأما منهجه في تأليف الكتاب فقد رتب ابن الأثير أخبار العالم الاسلامي على السنين فهو يجمع الحادثة التي تقطعت على أكثر من سنة ويذكرها في موضع واحد ، ويذكر من ملك أو تبع في قطر من البلاد ولم يطل حكمه في السنة التي كان فيها أول أمره ، ويضبط بعض الأسماء المشتبهة بالخط .

وللكامل في التاريخ ميزات منها بروز شخصية مؤلفه في الكتابة ، فقد برزت انفعالاته الذاتية مع الأحداث في مواقف الرضى أو السخط من خلال تعليقاته على بعض الأخبار ، من ذلك تعليقه على الصليبيين بعد عجزهم عن احتلال دمياط وانسحابهم الى الشام بعدما استباح نور الدين بلادهم فقال : « وهذا موضع المثل خرجت النعمة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين ! » وتعليقه على استعادة المسلمين دمياط عام ٦١٨ بقوله : « فرزقهم الله اعادة دمياط ، وبقيت البلاد بأيديهم على حالها ، فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على الاسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو ، وكفاهم شر التتر » .

كان ابن الأثير يطمح أن يؤلف كتاباً كاملاً في التاريخ ينطبق مضمونه على تسميته ، يتحاشى فيه عيوب كتب التاريخ التي سبقته فقد لاحظ أن منها « المطول الممل والمختصر المخل » ومنها الحافل بالأحداث والتفصيلات الصغيرة ، دون إبراز الأحداث الهامة ، وأن المؤرخ الشرقي اقتصر على التأريخ للمشرق والغربي اقتصر على التأريخ للمغرب فان تجاوزا ذلك أخل كلاهما بذكر أخبار الآخر . . . فجاء كتابه مقتصراً على المفيد ، كتبه ببصيرة نافذة وتنظيم مريح للقارئ ، وإن لم يتحرر كلياً من عيوب من سبقه من المؤرخين كاهتمامه بالسند دون مناقشة ما يروى من أساطير ولا سيما في تاريخ الفرس وبدا اهتمامه في بعض المناطق والأقاليم أكثر من المناطق أو الأقاليم الأخرى ، بحسب غزارة الأخبار أو قلتها

عنها ، لكنه كما قال روزنتال : « بذل جهده على الأقل لمراعاة توازن معقول بين الأحداث في كافة أنحاء العالم الاسلامي رغم أن عمله هذا لم يكلل بالنجاح التام » .

وقد تحدث الدكتور عبد القادر أحمد طليمات عن ابن الأثير الجزري في كتابه « ابن الأثير الجزري المؤرخ » فليخص أبرز سمات عمله التاريخي ومن هذه السمات أنه نقد التاريخ نقداً واعياً فرداً بعض تعليقات الطبري لحرب الفجار ودافع عن الخليفة عثمان في موقفه من أبي ذر الغفاري حين نفاه الى الربذة بقوله : « فان للامام أن يؤدب رعيته » ومن سمات تاريخه ملاحظته وتعليقه لبعض ظواهر تاريخية استقرأها من الأحداث كملاحظته تحول الملك من مؤسس الدولة في التاريخ الاسلامي الى أهل بيته دون أولاده ، وذكر عدة وقائع تؤيد هذه الظاهرة من التاريخ الاسلامي وعلل هذه الظاهرة « بأن الذي يكون أول دولة أكثر ويأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به فيحرمه الله أعقابه ، ومن يفعل ذلك ، من أجلهم عقوبة له » ومن سمات عمله التاريخي الحياء ، فقد أرخ للزنكيين والأيوبيين بحياد تام ، وان كان بعض المؤرخين قد اتهموه بالخروج عن الحياد حين حمل صلاح الدين مسؤولية تساهله مع الفرنجة والسماح لهم في التجمع بمدينة صور فاستعصى عليه فتحها بعد ذلك ، واعتبروا نقده هذا نقداً مغرضاً بهدف التجريح . ومن سمات عمله تخريره للمصادر الموثوقة التي استمد منها الأخبار وتصويبه بعض ما ورد فيها ، وتعليقاته التي تعكس حرصه على الدقة والصحة التاريخية ، غير أن ابن الأثير لم يستطع أن يتحرر من مشاعره الانسانية في كثير من المواقف فكان يبرز فرحه لانتصارات قومه في مواجهة التتر والصليبيين ويبيدي رضاه أو استنكاره في تقويم للأشخاص والأحداث بأسلوب لاذع مفصحاً عن أحاسيسه الذاتية .

ولابن الأثير عز الدين مؤلفات أخرى لا يتسع المقال لاستيفاء موضوعها وأسلوبها بالتفصيل وهي تدخل في باب الحديث أو التاريخ أو كلاهما معاً منها :

١ - اللباب في تهذيب الأنساب : وهو كتاب اعتمد في تأليفه على كتاب الأنساب للسمعاني عبد الكريم بن محمد بن منصور المروزي ، فهدبه واختصر تراجمه المطولة وصحح معلوماته ، وربط البطون بالقبائل التي ينتسب اليها

أصحاب الأنساب معتمداً على مصادر أخرى منها : كتب ابن خياط والقاسم بن سلام ، وابن ماكولا ، والدار قطني .

٢ - أسد الغابة في معرفة أسماء الصحابة : وهو تراجم للصحابة وقد عرّف ابن الأثير الصحابي بقوله : « ان الصحابي هو الذي » أقام مع رسول الله ﷺ سنة أو سنتين وغزا معه غزوة أو غزوتين » واعتمد فيه على المصادر التي سبقته ، فصوّب بعض الأسماء والأماكن ، وحذف بعض الأحاديث ، وعلّق على بعضها ، وأضاف معلومات لم ترد في كتب تراجم الصحابة الأساسية السابقة ككتاب : « معرفة الصحابة » لابن مندة وكتاب معرفة الصحابة : لأبي نعيم الأصفهاني وكتاب : الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر القرطبي ، وكتاب تقييد المهمل وتمييز المشكل في رجال الصحيحين لأبي علي الغساني . وقد رتب التراجم فيه على حروف الهجاء وضبط الأسماء المتشابهة وشرح بعض الألفاظ الصعبة في الأحاديث .

٣ - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية : وهي الدولة التي أسسها عماد الدين زنكي في الموصل وعاش ابن الأثير وأسرته في ظلها فهو تاريخ للأسرة الزنكية والدولة التي أسستها فصل فيه أخبار هذه الدولة تفصيلاً تجاوز ما ورد عنها في كتابه الكامل ، ودفعه الى تأليفه وفاؤه للأسرة الزنكية التي برّت أسرته ولاسيما نور الدين أرسلان شاه ، وقد ألف الكتاب بمناسبة وفاته لتوطيد صلته ببدر الدين لؤلؤ الذي خلفه سنة ٦٠٧ هـ . وقد خرج في بعض حوادثه عن الحياد التاريخي فبدأ مماثلاً للأسرة الزنكية متستراً على بعض عيوب أعلامها ، وقد اعتمد على والده في جمع بعض أخباره .

هذه لمحة موجزة عن حياة هذا العالم الكبير الذي خدم الثقافة العربية ودفع بكتابه التاريخ العربي الاسلامي خطوة الى الأمام .

□ مراجع البحث :

- | | |
|------------------------------------|-------------------------------|
| ١ - وفيات الأعيان : لابن خلكان . | ٥ - مرآة الجنان للياضي . |
| ٢ - البداية والنهاية : لابن كثير . | ٦ - طبقات الشافعية : للسبكي . |
| ٣ - ذيل الروضتين : لأبي شامة . | ٧ - هدية العارفين : |
| ٤ - شذرات الذهب : لابن العماد . | |